القومية العربية منذ مئة عام

للدكتور اسد رستم

اصحيح ان النزاع الذي وقع بين محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني كان نزاعاً قومياً بين الاتراك العثمانيين والعرب المصريين او على الاقل ان الروح القومية العربية كانت من اسباب ذلك النزاع — بحث انتقادي تاريخي

من رأي بارّو ودافيزيه ده بونتاز الافرنسيين ان النزاع الذي حدث بين محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني كان نزاعاً قومياً بين العرب والاتراك . هذان الكاتبان يريان ان محمد علي باشا كان يدافع عن العرب المستبد بهم الذين عزموا عزماً قاطعاً على ازاحة نير الاتراك عن اكتافهم كما فعل اليونانيون والسربيون من قبلهم . فالمصري العربي في رايهما كان يحارب الاتراك العثمانيين عام ١٨٣١ م . للحصول على حريته واستقلاله [1] . ويناقض رأي هذين الكاتبين كثيرون من

---

(١) وكلاهما عاصر النزاع المومأ اليه اعلاه وزار الشرق الادني في اثناء وقوعه . اطلب كلام المسيو بارّو عن الامبراطورية العربية في مولفه المعنون الشرق والغرب ص ١٤٥ — ١٩٥ وما قاله ايضاً في مجلة الـ Revue des deux mondes سنة ١٨٣٥ ج ١ ص ٤٥٨ وسنة ١٨٣٩ ج ٢ ص ٦١٩ . اطلب ايضاً كلام المسيو دافيزيه في الموضوع نفسه في كتابه مصر والشرق ص ٢٠٥—٢٠٦ وفي المجلة الافرنسية المشار اليها انفاً في عدد شباط سنة ١٨٣٥ . وتشتم الرائحة نفسها من كلام الاستاذ ألِسُن فيليبس — استاذ التاريخ الحديث الان في جامعة دَبْلِن الارلندية — في التاريخ الحديث لجامعة كامبردج ج ١٠ ص ٥٥٠

الكتاب المعاصرين الذين يؤكدون ان محمداً كان تركياً وانه كان يريد ويتمنى ان يبقى والياً من ولاة السلطنة التركية العثمانية (٢)

على ان اكثر الاصول التاريخية المعروفة الان والتي تبحث في هذا النزاع لا تشير اليه كنزاع قومي بين محمدٍ ومحمود . وهذه الاكثرية تتألف من الاوروبيين الذين استخدمهم محمد علي نفسه في مناصب حكومته المهمة ومن ممثلي الدول الاوروبية في مصر وقتئذٍ وسائر المؤرخين الوطنيين تقريباً . فرجال في مقام هؤلاء من حيث دقة النظر والتمحيص ودرجة الاطلاع على ماجريات الامور السياسية والاختلاف في وجوه النظر كان ينتظر منهم ان يلاحظوا الوجهة القومية في هذا النزاع لو وجدت وان يدونوا ما يعن لهم بشأنها من هذا القبيل لو كان حقيقة محسوسة (٣)

ومما له شأن تاريخي في هذا البحث ما قاله الكاتب الافرنسي المعاصر المسيو جيراردان في مقالته المشار اليها انفاً عن نظر محمد علي باشا الى اللغة العربية وابنائها الوطنيين : « هو تركي لا يتكلم الا اللغة التركية ولا يثق الا بابنائها » ويؤيد هذا القول بتمامه البارون بوالاكونت الافرنسي في تقريره السري الى وزير الامور الخارجية في فرنسا وقتئذٍ . ويقول الكاتبان المجهولان المعاصران — ب . و ه . — في كتابهما تاريخ مصر الحديث الذي كتب حوالي سنة ١٨٤٦ في الصفحة ١٣٣ ما خلاصته : « ولا يسمح محمد علي باشا للعرب الوطنيين بالدخول في مدرسة الضباط العسكرية ولا ان يترقوا في مسالك الجندية » . ولولا ضيق المجال لاستشهدنا

---

(٢) من هؤلاء الكاتبان المعاصران جيراردان الافرنسي وادورد روبنصن الاميركي اطلب مجلة Revue des deux mondes عن سنة ١٨٤٠ ج ٣ ص ٦٤٢ وكتاب الثاني الذي عنوانه Biblical Researches in Palestine

(٣) هذا ولا بد لنا من الاقرار ان ما نشر للان من تقارير ممثلي الدول ينقصه قسم كبير من اقوالهم السرية الصريحة

باقوال غير هؤلاء من المعاصرين الشاهدي العيان ايضاً

وزد على هذا كله انه بينما كان الحصار لا يزال مضروباً على عكا دبرت فتنة ضد محمد علي باشا في القاهرة عاصمة حكمه فبلغه امرها قبل حدوثها واضطر ان يصدر اوامر مشددة الى رجال الشرطة ليقبضوا على كل المشاغبين ويلقوهم في غياهب السجون . ثم اضطر ان يفتك ببعض الذين حامت عليهم الشبهات تحت ستار الليل قبل ان قضى على ما بين سكان القاهرة من ميل الى الثورة (٤) ولم يؤذن لاحد من المصريين ان يتحدث عن احوال حملته على سوريا عام ١٨٣١—١٨٣٢ قال نوفل نوفل الطرابلسي في مخطوطته المحفوظة الان في مكتبة جامعة بيروت الاميركية : « ولما رجعت المراكب المصرية الحربية بعد ان حاصرت عكا بحراً بايام قلايل مهشمة من ضرب قنابل قلاع عكا تهشيماً محكماً دل على براعة المهندسين والمدفعيين الذين فيها الامر الذي اوجب القلق الكلي في مصر واضطراب افكار الحكومة صدر امر قاطع بان لا احد في مصر يذكر اسم بر الشام مطلقاً وبخاصة عكا وتزايد التشديد حتى كان احد المتسببين في ذات يوم يفتح دكانه صباحاً فتعاصى عليه القفل فلطم الباب وقال ويلك أأنت سور عكا فلم يلبث ان قبضت عليه الضابطة واخذوه الى الحكومة فحكم عليه بالقتل » . فلو ان سكان القاهرة والاسكندرية كانوا حقيقة يبغضون الحكام الاتراك كانت الحال على غير هذا المنوال

ولنا في موقف المصريين ازاء الخدمة العسكرية في وادي النيل انئذٍ شاهد اخر على بطلان قول بارو ودافيزيه ده بونتاز وغيرهم . فكثير من الشبان المصريين ذروا الزرنيخ في عيونهم لكي يفقدوا بصرهم ويتملصوا من الخدمة العسكرية الاجبارية ومنهم من قطع سبابة اليد اليمنى او قلع اسنانه او بتر ذراعه . ومئات من الفلاحين هربوا الى سورية فراراً من الجندية (٥) فلو ان الوطنيين المصريين كانوا يحاربون

---

(٤) St, John, Egypt and Mohammed Ali (London, 1834) II, 492,

(٥) المولف نفسه ج ٢ ص ٢٨٦—٢٨٨

في سبيل حريتهم واستقلالهم القومي سنة ١٨٣١ وسنة ١٨٣٢ لكانوا تصرفوا غير هذا التصرف حين مسّت حاجة البلاد اليهم

وزد على ذلك ان حركة قومية عربية في مصر وسورية منذ مئة سنة كانت مخالفة كل المخالفة لاتجاه الفكر الشرقي في ذلك الحين . فالعصر الذي وجد فيه محمد علي باشا كان كالعصور الوسطى من كل وجوهه اعتقد فيه الناس ان الحياة على الارض ليست سوى مقدمة وجيزة للحياة الحقيقية المقبلة وكانت غاية الناس الكبرى تحقق الوصول الى الجنة والخلاص من النار

تعبٌ كلها الحياة فما اعجبُ الا من راغبٍ في ازديادِ
ان حزناً في ساعةِ الموت اضعا فُ سرورٍ في ساعة الميلادِ
خُلقَ الناسُ للبقاءِ فضلّت امةٌ يحسبونهم للنَّفادِ
انما ينقلون من دار اعما لٍ الى دار شقوة او رشادِ
ضجعةُ الموت رقدة يستريح الـ جسمُ فيها والعيش مثل السُهادِ

كان الاسلام في ذلك الزمن اقوى العوامل الاجتماعية في الشرق وكل اتباعه من عرب وترك سواء فيه . نعم كانت لغة بعض المسلمين تركية ولغة البعض الاخر عربية ولكن ذلك لم يجعل الاولين اتراكاً بشعورهم اليوم ولا الاخرين عرباً كما نعرف المتحمسين منهم في القومية اليوم . لذلك نرى ان الشرق الذي عاش فيه محمد علي باشا لم يكن النظر فيه الى القوميات بل الى الاديان والمذاهب . على اننا لا نريد بهذا القول ان المسلمين في الربع الاول من القرن التاسع عشر لم يحارب بعضهم بعضاً بل نريد ان نوضح ان عوامل الفصل والاتحاد في المسائل السياسية والحربية لم تكن جنسية ولا قومية

اضف الى ذلك ان العوامل التي حركت النهضة القومية العربية الحديثة اليوم لم تكن قد بدأت تؤثر في العالم العربي حينئذٍ . فمن الجهة الواحدة لم يكن التركي قد بلغ من الادعاء بتفوقه على سائر الشعوب في السلطنة التركية ماحرك في صدور

بعض اخواننا العرب الآمال القومية العربية التي تدور على ألسن الوطنيين في سورية وفلسطين والعراق الان . ومن الجهة الثانية كانت وسائل الانتقال والتعليم قليلة ودرس مفاخر العرب ومجدهم الغابر كان لا يزال في بدئه فلم يجد العرب حينئذٍ ما يخرجهم من دائرة قراهم الضيقة ويجعلهم يشعرون انهم ابناء وحدة قومية عربية عظيمة ولا يزال في سورية وفلسطين اليوم كثير من الناس الذين لم يتعدوا حدود البقعة التي ولدوا فيها . ولم تكن دول اوروبا قد افتتحت مصر وسورية والعراق وجعلت الوطني يشعر بحكم الاجنبي وبفروق المصلحة والدين واللغة والعادات بينهما

فمن المحتمل ان النزاع الذي وقع بين محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني لم يكن نزاعاً بين جنس وجنس . ويظهر لي ان بارو ودافيزية وقتئذٍ والاستاذ السن فيليبس اليوم لم يعرفوا الحياة الشرقية بحقيقتها ولم يفهموا دورة عقول ابنائها . عاش الاولون في عصر كانت القومية اقوى عناصره في اوروبا . وقد تكون الثورات التي نشبت حوالي سنة ١٨٣٠ جعلتهما ينظران الى الشرق نظراً متأثراً بالنهضة القومية في اوروبا

هذا ما قلناه عام ١٩٢٥ في المؤتمر الدولي الجغرافي في مصر [٦] وهو ما لا نزال نقوله ونرجحه اليوم . غير انه لا بد لنا من الاقرار الان بمناسبة ظهور المجلد الاخير من منشورات الجمعية الملكية الجغرافية المصرية هذه السنة [٧] انه ربما جال بمخيّلة ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا وقائد جيشه فكر احياء القومية العربية لاستمالة عطف جنوده العرب في حروبه مع السلطان من جهة ولتثبيت قدمه في البلدان العربية من جهة اخرى . قال البارون بوالاكونت معتمد فرنسا السياسي تجاه محمد علي باشا سنة ١٨٣٣ ما خلاصته : « يريد ابراهيم باشا ان يحيي الامة العربية وان يعطي العرب حقهم في حكومة البلاد وفي الجيش ايضاً . وقد ذكّر عساكره في اثناء حربه الاخير

---

(٦) اطلب مجلة المقتطف ج ٦٦ ص ٥٣٩ (٧) Georges Douin, la Mission du Baron de Boislecomte en Egypie et en Syrie en 1833, le Caire, 1927.

في سورية بماضي الامة العربية المجيد . وهو يقول انه يجب ان تكون كل البلدان العربية تحت حكم والدم ولذا فانه يودّ ان يسيطر على بغداد والعراق العربي . وقد سأله احد جنوده مرة عن السبب الذي يجعله يطعن في الاتراك العثمانيين وهو منهم فاجابه ابراهيم — انا لست تركياً . قدمت مصر طفلاً وقد غيرتني شمسها منذ ذلك الحين فاصبحت الان عربياً متلك — وقد ردّد لي مختار بك ازكان حرب ابراهيم باشا المعني نفسه على حدة » . وليس في الامكان البت في امر علاقة ابراهيم باشا بالقومية العربية الان بالرغم عن هذا التصريح . لانه ليس لدينا سوى شاهد واحد . والعلم الصحيح يمنع الاثبات والتصديق في الامور التاريخية التي ليس لها سوى راوٍ واحدٍ مهما عظمت مكانته الادبية ومقدرته الفنية . ولا بد لنا من الاقرار الان كما فعلنا بالامس في بعض مقالاتنا في هذا الموضوع باننا لا نزال بعيدين عن البحث العلمي الدقيق الذي كنا ولا نزال نتوخاه ولكننا وجدنا ان الاحجام عن نشر ما يتهيأ لدينا من آنٍ الى آخر في المجلات العلمية لمجرد الاعتقاد بانه دون ما نبغي مما يؤدي الى الجمود العلمي الذي لا يتفق مع سنة النشوء والارتقاء

وفي الختام فاننا نرفع مرة ثانية مزيد الشكر لصاحب الجلالة الملك فواد الاول علي كرمه وتشجيعه للعلم والادب وللجمعية الجغرافية الملكية ولصديقنا الفاضل المسيو جورج دوان عملهما المفيد والسلام